مريم * زكريا * يحيى

فى سورة آل عمران الرهيبة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران الآية ٣٣)

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾

(آل عمران الآية ٣٥)

نذرتْ ما فى بطنها ،إن كان ولدا ذكرًا ، أن تهبه لبيت المقدس ، يخدم فيه ، وكان ذلك ، أكرم قربان يتقرب به العباد إلى الله .

وكان دعاؤها رجاءً وأملاً فى الله ، أن يرزقها ولدًا ، فما كان يوهب لخدمة المسجد إلا الغلمان .

وما كان لها ولد ، وحرمان الولد ، يُعَطِّش العاطفة ، ويؤجِّج الشوق إليه ، ويثير اللهفة عليه ، والرغبة فى الخلف بأى ثمن ، حتى لو وهبته للحرب أو للمسجد .

وتلك أمانى المحروم وآماله ، إذا أزعجه شبح اليأس ، وقرَّحتْ جفونه أطياف القنوط .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ (آل عمران الآية ٣٥)

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ (آل عمران الآية ٣٥)

أحرره لك يا ربى من كل مشاغل الدنيا . فتقبل دعائى ، إنك تسمعنى ، وتعلم همس خاطرى ومناجاة آمال نفسى !

* * *

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ (آل عمران الآية ٣٦)

وكان فى حديثها إلى الله ، لغة التحسُّر ، وريح الفجْعة فى ولادة البنت . والناس من قديم لا يبشون فى وجه البنات .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(النحل الآيتان ٥٨/٥٩)

والبنت من يوم أن تخرج من ظلام بطن أمها ، تلقاها الوجوه عابسة ، والابتسامة فاترة ، والحرارة هادئة ، والقلوب كسيرة .

* * *

وأليس الله يعلم ، يا امرأة عمران ، أنها أنثى ؟ وأن ليس الذكر كالأنثى ؟ ويعلم أن القلوب معلقة بحبال الآمال فى ولد ، يكون السند ، ويشد العضد ، ويقوى الجلد ؟

ويعلم أن البنت عبءٌ ومسئولية ، فى ولادتها ، وتربيتها ، ورعايتها ، وحياطتها ، والتحرى فى اختيار زوجها ،وتجهيزها ، وزفافها ، وتأمين راحتها .

ويعلم ، ونعوذ بالله ، أنها إنْ ساءَ حظها ، فزلتْ قدمها ، وانكشف سترها وفاحت رائحتها ، وانصرف الأزواج عنها ، كانت سُبَّةً وعارًا على أهلها

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ (آل عمران الآية ٣٦)

* * *

يا امرأة عمران ، لا تحزنى ، فقد قبلنا نذرك ، وتقبلنا بنتك ، وأضفينا على وجهها جمالاً ، فادفعيها إلى بيت المقدس ، وفاءً بنذرك .

فلفتها فى ثياب ودفعتها ، إلى سَدَنَة البيت ، حُرَّاسِه المنقطعين . لخدمته ورعايته ، وقالت : دونكم هذه النذيرة ، بنت إمامكم عمران .

وتنافس السدنة فيها ، أيهم يكفل الطفلة النذيرة مريم ابنة عمران . واختصموا فى المنافسة ، واقترعوا عليها ، فألقوا أقلامهم فى البحر ، فمن طفا قلمه على الماء فاز بها .

وفاز بالقرعة عليها ، النبى زكريا ، زوج خالتها ، فتولاها وكفلها ، وبنى لها غرفة مشرفة فى المحراب ، والمحراب مكان الإمام المصلى ، وهو أقدس مكان فيه ، فإنه أرهب مكان يحارب فيه الشيطان .

* * *

وما كان يدخل عليها المحراب ، غير زكريا ، وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، فاكهة الصيف يجدها عندها فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء يجدها عندها فى الصيف .

فأخذه العجب ، من أمر هذه الفتاة ، وسألها : أنّى لك هذا ! قالت : هو من عند الله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(آل عمران الآية ٣٧)

فإن كنت تظن أنك ترزقنى بما تأتينى من طعام وشراب ، فإن ما عند الله خير مما عندك .

سبحانك ربى ، قدرتك حيَّرت العقول ، هذه بُنية حبيسة ، لا حول لها ولا طول ولا زائر ولا عابر ، فإذا بين يديها رزقٌ خير رزق ، وجودٌ من عدم ، وأمل من يأس ، وهبة وما قدمتْ إليك من قربان !

أفلا يُطمعنى ، ما أرى ، أن أضرع إليك ، وأسألك أن تهب لى ذُرية طيبة ؟ إنك سميع الدعاء .

يا ربى ﴿ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

(مريم الآيات ٤-٦)

ربى ﴿ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٨٩)

تلك صلاة ، والصلاة دعاءٌ ، وصلاة بعد سَبْحة طويلة ، فى تأملات وتسبيحات ، فتجلى نور الله ، فاستجاب دعاه

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(آل عمران الآية ٣٩)

* * *

ولدٌ يا زكريا ، ولا كالأولاد ، مؤمن ، يصدق بالله ،وكلماته ، وآياته البينات على جليل حكمته ، وبديع قدرته .

* * *

ولدٌ يسود قومه ، ويعصم من الذنوب نفسه ، ونبيٌّ تشرفه رسالته ، وصالحٌ مصلح فى مجتمعه ، وهديةُ الله إليك يا زكريا ، والحبيب يهدى إلى الحبيب .

ويخر زكريا ساجدًا شاكرًا ، غارقًا فى بحار فضل الله ، متعجبًا مما قضى الله ، فهو قد شاخ وقارب المائة ، وقد انحنى ظهره ، وجف عوده ، وشاخت زوجته ، وضمُرت وعقِمت ، ويَبِستْ عظامها فمن أين يأتينا الولد يا ربى ! ؟

* * *

لا تعجبْ يا زكريا ، ففضل الله واسع ، ورحمته تجبر المكسور ، وتُحيى الأمل ، وأمره نافذ يفعل ما يشاءُ

﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

(غافر الآية ٦٨)

ويشتد به العجب ، وتبلبله الحيرة ، ويكاد لا يصدق ؛ فيحبُّ أن يستوثق ، وأن يشد يديه على تلك الأمنية ؛ فيسأل ربه

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾

(مريم الآية ١٠)

تطمئن بها نفسى ، ويسكن قلبى ، ويدفأ بالفرحة جسمى ، ويجرى دمى ، وأشعر بحياتى وحيويتى !

﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

(مريم الآية ١٠)

قال : آيتك أن يصمت لسانك ، ويسكت بيانك ، وتعيا عن الكلام ثلاثة أيام ،لا تستطيع أن تتفاهم مع الناس ، إلا بالإشارة والرموز .

* * *

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

(مريم الآية ١١)

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

(مريم الآية ٧)

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

(آل عمران ٤١)

وصدق الله العظيم ، فكُبِر يحيى ، وقرَّت به عين زكريا ، واكتمل عقله فى صباه ، واصطفاه الله نبيًّا فى شبابه ، وفهم التوراة ، وأحكم فهمها ، وولاه الله أمر الدين ، والقيام على هداية الناس وهو فتى ، وأنعم الله صدره بالحنان ، فكان رءوفًا رحيمًا ، رقيق العاطفة ، لطيف الإحساس ، وزكتْ نفسه ، وتطهرت روحه من درن الأرجاس . وراض نفسه على تقوى الله ، فما جرؤ على معصية ،ولا أعان عاصيًا ،ولا جامل فاسقًا .

وأنعم الله عليه بالبر بوالديه يطيع ويحنو ، ويُفرح ويُسعد ، ويشرح الفؤاد ، ويجدد الأمل ، ويحمل عبئًا كان يشغل بال أبيه ، وإنى خفت الموالى من ورائى . وخشيت ألا ينهضوا بعبئى ويتموا رسالتى ، فهب لى من لدنك وليا .

ونزع الله من طبيعته غريزة الطغيان والجبروت . وأغمض عينيه عن العناد والعصيان . وسلَّم عليه الله وسلَّمه من كل رذيلة ، وزيَّنه وحلاَّه بكل فضيلة ، وحفظه من مس الشيطان يوم ولد ، وبارك عليه طول عمره وسلمه من الفزع والانزعاج وسوء الخاتمة يوم مات . وَيُسَلَّم عليه يوم البعث ، ويُسلمه من رجفة الحشر ، وهول الموقف ، ومن الخزى الذى تضيق به صدور المجرمين ، يوم يُعرضون على رب العالمين .

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

(مريم الآيات ١٢-١٥)

* * *

وقاتلكم الله يا بنى إسرائيل .

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

(البقرة الآية ٨٧)

قتلتم يحيى وحَزَزْتم عنقه ، يوم صاح فيكم صيحة الحق ، ورفع صوته مستنكرًا أن يتزوج الرجل بنت أخيه ، مهما كانت مليحة ، ومهما كان موفور الغنى ،ويوم فَرَضَت عليه هذه المليحة الجميلة ، أن يكون مهرها رأس يحيى ، الذى عارض زواجها من عمها ، وكشف خطيئتهما وفضح سرهما .

فحزّ الطاغية العاتى رأس يحيى .

ورماه تحت قدميها . مهرًا لها !

قاتلكم الله !!

* * *